

الاضطهاد في القرون الوسطى

عندما اعلن يسوع لتلاميذه عن مصير اورشليم ومشاهد مجيئه الثاني انبأهم ايضاً باختبار شعبه منذ اليوم الذي فيه يؤخذ من بينهم الى يوم مجيئه ثانية بقوة ومجد كثير لانقاذهم. ومن فوق جبل الزيتون شاهد المخلص العواصف المزمعة ان تهب على الكنيسة الرسولية، واذ اخترق ببصره حجب المستقبل شاهد الاعاصير العنيفة المدمرة التي ستهاجم تابعيه في العصور المقبلة، عصور الظلام والاضطهاد. وفي كلمات مختصرة ذات معنى مخيف انبأهم بالنصيب الذي سيكبله رؤساء هذا العالم لكنيسة الله (متى ٢٤: ٩ و ٢١ و ٢٢). فعلى أتباع المسيح ان يسلكوا طريق الاتضاع والعار والألم نفسه الذي سار فيه سيدهم، فالعداوة التي هوجم بها فادي العالم ستهاجم كل من يؤمنون باسمه.

شهد تاريخ الكنيسة الاولى على تأكيد اقوال المخلص واتمامها وصدقها. فقوات الارض والجحيم اصطفت ضد المسيح في شخص اتباعه وتلاميذه. لقد سبق للوثنية ان رأت انه لو انتصر الانجيل فستزول هياكلها ومذابحها وتداول دولتها، ولذلك استجمعت كل قواتها وحشدت جيوشها لملاشاة المسيحية، واشعلت ضدها نيران الاضطهاد. فجرد المسيحيون من املاكهم وسلبت أموالهم من بيوتهم وأوطانهم. لقد صبروا «على مجاهدة آلام كثير»

(عبرانيين ١٠: ٣٢). وقد « تجربوا في هزة وجلد ثم في قيود ايضاً وحبس » (عبرانيين ١١: ٣٦)، وكثيرون منهم ختموا شهادتهم بدمهم. فالسادة منهم والعبيد، الاغنياء والفقراء، العلماء والجهلاء قُتلوا جميعاً من دون رحمة.

هذه الاضطهادات التي بدأت في اثناء حكم نيرون قُبل استشهاده بولس ظلت رحاها تدور امدًا طويلًا، تشتد احيانًا وتخف اخرى، وقد ظلت نارها مشتعلة قرونًا. لقد اتهم المسيحيون كذبا بجرائم مخيفة، وأعلن أنهم السبب في كل الكوارث العظيمة، كالمجاعات والأوبئة والزلازل. واذ صاروا هدفا لكرهية الجماهير وإرتيابهم فقد وقف الوشاة مستعدين لتسليم أولئك الأبرياء للموت طمعاً في الربح القبيح والحصول على المال الملوث بالدماء الزكية. وقد حُكم علىهم بأنهم متمردون وثائرون على حكم الامبراطورية وانهم اعداء الدين وآفات المجتمع. وقد طُرح عدد غفير منهم للوحوش الكاسرة أو أحرقوا أحياء في مدرجات الألعاب العامة وساحاتها. وقد صُلب غيرهم، وآخرون ألبسوا جلود وحوش ضارية وطرخوا طرائد للكلاب الوحشية. وكان قصاصهم وتعذيبهم فرصة لتسليية الجماهير وإلهائهم كما لو كانوا يحتلفون بعيد من أعيادهم. ولقد اجتمع جماهير غفيرة لكي يمتعوا أنظارهم بتلك المشاهد، وكانوا يستقبلون عذابات اولئك الشهداء بالضحك والتصفيق.

وأتى ذهب أتباع المسيح بحثًا عن ملجأ يلوذون به كان أعداؤهم يتصيدونهم كما لو كانوا وحوشًا ضارية. ولقد اضطروا الى الاختباء في أماكن موحشة منعزلة « معتازين مكرويين مذلين. وهم لم يكن العالم مستحقًا لهم. تائهيين في براريّ وجبالٍ ومغايرٍ وشقوقِ الارض » (عبرانيين ١١: ٣٧ و ٣٨). والتجأ الى السرايب آلاف منهم. وقد نُقرت في قلب الارض والصخر دهاليز طويلة تحت التلال خارج مدينة روما. وأمتد هذا التيه المظلم المعقد من الممرات مسافة أميال طويلة خارج أسوار المدينة. وفي هذه المعتكفات التي تحت الارض كان تلاميذ المسيح يدفنون موتاهم، وفيها كانوا يجدون مسكنًا لهم عندما كانت تحوم حولهم الشبهات ويُحكم عليهم بالنفي. وعندما يقيم المعطي الحياة اولئك الذين

قد جاهدوا الجهاد الحسن فسيخرج من تلك المقابر المظلمة كثيرون ممن قد استشهدوا لأجل المسيح.

إيمان شهود الرب

ظل أولئك الشهود محتفظين بإيمانهم طاهرا نقياً تحت أقسى الاضطهادات. ومع أنهم حُرِّموا من كل أسباب الراحة والعزاء ونُفوا بعيداً من نور الشمس وعاشوا في جوف الأرض المظلمة الحبيبة اليهم فانهم لم ينطقوا بكلمة تدمر أو شكوى، بل كانوا يشجعون بعضهم بعضاً بكلمات الايمان والصبر والرجاء على احتمال العوز والضيق. أن خسارة كل الخيرات الأرضية لم تجبرهم على أن يجحدوا إيمانهم بالمسيح. فلقد كانت التجارب والاضطهادات خطوات قَرَّبَتْهم من راحتهم وثوابهم.

وكغيرهم من عبيد الله في القديم، كثيرون منهم «عُذِّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة افضل» (عبرانيين ١١ : ٢٥). هؤلاء ذكروا أقوال سيدهم وهي أنهم حين يضطهدهم الآخرون لأجل المسيح فليفرحوا ويتهللوا لأن أجرهم عظيم في السموات لأن أولئك هكذا طردوا واضطهدوا الأنبياء الذين قبلهم. لقد تهللوا وفرحوا لأنهم حُسِّبوا مستأهلين لأن يتألموا من أجل الحق، ومن وسط لهب النيران التي كانت تكوي أجسامهم وتلتهمها كانوا ينشدون أناشيد الانتصار. واذ كانوا يشخصون إلى السماء بإيمان كانوا يرون المسيح والملائكة يطلون من شرفات مسكن المجد وهم ينظرون إليهم باهتمام عظيم ويثنون على ثباتهم. وقد جاء من عرش الله صوت يقول لهم: «كن أميناً إلى الموت فسأعطيك أكليلاً الحياة» (رؤيا ٢ : ١٠).

ولكن عبنا حاول الشيطان أن يهلك كنيسة المسيح أو يخربها بواسطة العنف. أن الصراع الهائل الذي فيه ضحى تلاميذ يسوع بحياتهم لم يتوقف عندما سقط حاملو الاعلام الامناء أولئك في مواقعهم. بل انتصروا بهزيمتهم. لقد قُتِل العاملون في كرم الرب لكن عمله ظل سائراً إلى الامام بثبات. وقد انتشر الانجيل



يطرحون للوحوش الكاسرة مستشهدين في سبيل الحق

وزاد عدد معتنقي تعاليمه. وتغلغل في اقاليم لم يتسنَّ حتى لأعلام روما وجيوشها ان تدخلها. أن أحد المسيحيين اذ كان يحاج الحكام الوثنيين الذين عزموا على مواصلة اضطهاد قطيع الرب قال: « يمكنكم أن تدينونا وتعذبونا وتقتلونا... ان ظلمكم لنا هو خير برهان على برارتنا. ولن تجديدكم القسوة فتبلا ». لقد كانت تلك القسوة قوة أعظم لاقناع الآخرين بتعاليم المسيحيين. ثم عاد ذلك الرجل يقول: « وكلما جززتمونا زاد عددنا. ان دم المسيحيين هو البذار » (٣).

وقد ألقى الوف منهم في السجون ثم قُتلوا، ولكن قام من رمادهم آخرون ليملأوا الفراغ الذي حدث بموتهم. والذين استشهدوا لأجل ايمانهم حُفظوا للمسيح، وقد حسبهم منتصرين. لقد جاهدوا الجهاد الحسن وسيعطون اكليل المجد عند مجيء المسيح. ومثالهم الحي واستشهادهم كانا شهادة دائمة للحق. وعلى غير انتظار ترك عبيد الشيطان خدمته وانضوا تحت لواء المسيح.

ولهذا دبر الشيطان خطته ليخوض حربا اكثر نجاحا من حربه السابقة ضد حكم الله، بأن نصب رايته في وسط كنيسة المسيح. فاذا أمكن التغرير بأتباع المسيح فانساقوا الى إسخاط الله فحينئذ ستخور قواهم ويخذلهم جلدتهم وثباتهم وسيسقطون فرائس سهلة المنال.

والآن فها هو الخصم العظيم يحاول أن يكسب بالحيلة ما أخفق في الحصول عليه بالعنف. فزال الاضطهاد وحلت في مكانه الاعراءات الخطرة، اغراءات النجاح المادي والمجد الباطل. وقد بدأ الوثنيون يقبلون جانبا من الايمان المسيحي، رافضين في الوقت نفسه الحقائق الجوهرية الأخرى. لقد أقروا بأنهم يقبلون يسوع كابن الله ويؤمنون بموته وقيامته ولكن لم يكن في قلوبهم تبكيت على الخطية ولم يحسوا بحاجتهم الى التوبة او تغيير قلوبهم. واذ أبدوا بعض التنازلات من جانبهم اقترحوا أن يتنازل المسيحيون عن بعض مبادئهم حتى يقف الجميع متحدين على مستوى واحد هو الايمان بالمسيح.

هنا وقعت المسيحية في خطر مخيف. ان السجن والتعذيب والنار والسيف كانت بركة عظيمة بالمقارنة مع هذا. لقد ظل بعض المسيحيين ثابتين، وأعلنوا انهم لا يستطيعون أن يعقدوا صلحا، بينما انحاز آخرون الى جانب التسليم وتحويل بعض مبادئ المسيحية، محتجين بأن هذا سيكون وسيلة لاهتدائهم الكامل. كان ذلك وقتَ كرب شديد لأتباع المسيح الأمناء. لقد بدأ الشيطان يتسلل الى الكنيسة تحت ستار المسيحية الكاذبة، ليفسد ايمان المسيحيين ويحول افكارهم عن كلمة الحق.

اخيرا رضي معظم المسيحيين بأن يخفوا مبادئهم فاتحدت المسيحية بالوثنية. ومع أن عبدة الأوثان أقروا بأنهم اهتدوا وانضموا الى الكنيسة، فقد ظلوا متعلقين بوثنتهم، مكتفين بتبديل موضوع عبادتهم بتمثيل للمسيح وحتى للعداء والقديسين. وإذ أدخلت هذه الخميرة الفاسدة على هذا النحو الى داخل الكنيسة استمرت تعمل عملها الويل. ولقد تغلغت في ايمان الكنيسة وعباداتها العقائد الفاسدة والشعائر الخرافية والطقوس الوثنية. واذ اختلط اتباع المسيح بعبدة الاوثان فسد الدين المسيحي وجردت الكنيسة من طهارتها وقوتها. ومع ذلك فقد بقي بعض ممن لم ينقادوا وراء تلك الضلالات، وظلوا محتفظين بولائهم لمبدع الحق، فكانوا يعبدون الله وحده.

فريقان في الكنيسة

كان يوجد دائما فريقان بين من أقروا بأنهم اتباع المسيح. ففي حين أن فريقا منهما كان يدرس حياة المخلص ويجتهد في اصلاح نقائصه والتشبهه بمثال يسوع، فإن الفريق الثاني كان ينبذ الحقائق الواضحة العملية التي تفضح ضلالتهم. هذا، وأن الكنيسة حتى وهي في أحسن حالاتها لم يكن كل اعضائها من الامناء والاطهار المخلصين. لقد علم المخلص أن من يتعمدون الانغماس في الخطية ينبغي الا يُقبلوا في الكنيسة، ومع ذلك فقد ضم اليه رجالا مخطئين ومنحهم فوائد تعاليمه ومثاله حتى تكون لديهم فرصة فيها يكتشفون

اخطاءهم ويصلحونها. فقد كان يوجد خائن بين الاثني عشر. لقد قُبل يهوذا ليس بسبب اخطائه بل على رغمها. انضم الى التلاميذ حتى عن طريق تعاليم المسيح ومثاله يتعلم ما هي عناصر الخلق المسيحي، وهذا يقود الى اكتشاف اخطائه والتوبة عنها وبمعونة النعمة الالهية يطهر نفسه « في طاعة الحق ». لكن يهوذا لم يسلك في النور المتوفر له بسخاء مشرقا عليه برحمة الله. واذ انغمس في الخطيئة عرض نفسه لتجارب الشيطان، وهكذا أصبحت صفاته الشريرة هي السائدة عليه. وقد أسلم عقله وأفكاره لسلطان قوات الظلمة، وغضب عندما وبَّخ، وهذا قاده الى إرتكاب تلك الخطيئة المخيفة وهي تسليم سيده. وهكذا يفعل كل من يحتضنون الشر، والذين تحت ستار الاعتراف بالتقوى يبغضون من يعكرون سلامهم بإدانتهم حياة الخطيئة التي يعيشونها. ومتى سنحت لهم الفرصة فهم يتمثلون بيهوذا فيسلمون اولئك الذين ارادوا أن يوبخوهم لخيرهم.

اصطدم الرسل ببعض من كانوا في الكنيسة يعترفون بالتقوى وفي الوقت نفسه يحتضنون الاثم سرا. لقد مثَّل حنانيا وامراته سفيرة دور الخونة المخادعين اذ تظاهرا بأنهما يقدمان تقدمة كاملة لله بينما كانا قد ابقيا في حوزتهما بعض الثمن، بدافع الطمع. وقد كشف روح الحق للرسل عن حقيقة ذينك الكاذبين، وانقذت ضربات الله ودينوته الكنيسة من هذه اللطخة الخبيثة التي شوهدت طهارتها. هذا الدليل الشهير على روح المسيح المميز في الكنيسة كان مبعث رعب للمرائين وفاعلي الشر. فلم يستطيعوا البقاء مرتبطين بالذين في عاداتهم وميولهم كانوا ممثلين دائمين للمسيح. واذ هجمت التجارب والاضطهادات على تابعيه فالذين كانوا يرغبون في ترك كل شيء لاجل الحق احبوا أن يصيروا تلاميذ له. وهكذا طوال اشتداد الاضطهادات ظلت الكنيسة طاهرة نسبيا. ولكن عندما زال الاضطهاد انضم الى الكنيسة مهتدون جدد ممن كانوا أقل أخلاصا وتقوى. وقد كان الطريق ممهدا والباب مفتوحا أمام الشيطان ليحصل على موضع لقدمه في الكنيسة.

ولكن لا يوجد اتفاق بين رئيس النور ورئيس الظلام، وكذلك لن يكون هنالك اتحاد بين اتباعهما. عندما رضي المسيحيون بأن يرتبطوا بمن كانوا نصف مهتدين من الوثنية بدأوا يسيرون في طريق جعل يبتعد شيئاً فشيئاً عن الحق. وقد ابتهج الشيطان لكونه قد أفلح في التغرير بعدد كبير من تابعي المسيح. واستخدم قوته في التأثير على هؤلاء، وأوعز اليهم ان يضطهدوا من قد ظلوا على ولائهم لله. ولم يدرك أحد ادراكاً كاملاً كيف يقاوم الايمان المسيحي الحقيقي إلا اولئك الذين كانوا قبلاً حماة، وهؤلاء المسيحيون المرتدون اتحدوا مع رفاقهم الذين كانوا نصف وثنيين في محاربة تعاليم المسيح الجوهرية.

كان على من بقوا أمناء أن يثيروا حرباً يائسة لكي يثبتوا ضد المخادعات والرجاسات التي ادخلت الى الكنيسة متخفية تحت الطيالس الكهنوتية. والكتاب المقدس لم يُقبل على أنه مقياس الايمان وعقيدة الحرية الدينية اطلق عليها اسم الهرطقة، وكان معتنقو هذه العقيدة مكروهين فنُفوا بعيداً.

ضرورة الانفصال

وبعد نضال طويل مرير قرر الامناء القليلون أن يفصلوا انفسهم تماماً عن الكنيسة المرتدة اذا رفضت التحرر من البطل والكذب والوثنية. وقد رأوا أن الانفصال لازم لهم كل اللزوم اذا هم أرادوا اطاعة كلمة الله. ولم يجسروا على التساهل مع الضلالات المهلكة لنفوسهم اذ بذلك يصيرون قدوة تعرّض للخطر ايمان اولادهم وأحفادهم. وحتى يضمنوا السلام والاتحاد كانوا على استعداد لأن يذعنوا لكل ما لا يتعارض مع ولائهم لله. ولكنهم احسوا ان السلام سيشترى بثمن باهظ جدا اذا التزموا أن يضحوا بمبادئهم. فاذا لم يكن ممكناً ضمان الوحدة بغير تعريض الحق والبر للخطر، اذاً فليكن هنالك اختلاف بل وحرب اذا لزم.

ومن الخير للكنيسة وللعالم أن المبادئ التي قد الهبت تلك النفوس الثابتة وحمستها تنتعش في قلوب الذين كانوا يعترفون بأنهم شعب الله. هنالك عدم مبالاة مفزعة في ما يختص بالعقائد المعتبرة أعمدة يرتكز عليها الايمان المسيحي. وهنالك فكرة تجد رواجاً وتأييداً تقول أن هذه الأمور ليست ذات أهمية حيوية. هذا الانحطاط يشدد أيدي أعوان الشيطان، بحيث أن النظريات الكاذبة والضلالات المهلكة، التي خاطر الامناء في العصور السالفة بحياتهم لمقاومتها والتشهير بها، تنال استحسانا وقبولاً لدى آلاف من الناس الذين يدعون انهم اتباع المسيح.

كان المسيحيون الاولون شعبا خاصا حقا، وكان تصرفهم الذي بلا لوم وايمانهم الثابت الذي لا يتقلقل توييخاً مستمراً أزعج سلام الخطاة. ومع انهم كانوا قليلي العدد ولم يكونوا أثرياء ولا احتلوا مراكز سامية او منحوا القاب شرف فقد كانوا مبعث رعب لفاعلي الشر انى انتشرت تعاليمهم أو عرف الناس حقيقتهم. لهذا أبغضهم الأشرار كما أبغض قايين الشرير أخاه هابيل. والسبب نفسه الذي لأجله قتل قايين هابيل أخاه هو الذي حمل الذين حاولوا أن يلقوا بعيدا منهم روادع الروح القدس، على قتل شعب الله، ولهذا السبب رفض اليهود المخلص وصلبوه — لأن طهارته وقداسة صفاته كانت توييخاً دائماً لأنانيتهم وفسادهم. ومنذ أيام المسيح الى اليوم أثار تلاميذه الأمناء عداوة ومقاومة الذين يحبون طرق الخطيئة ويسيرون فيها.

فكيف يمكن اذا أن يدعى الانجيل رسالة السلام؟ أن أشعيا عندما أنبأ بميلاد مسيا نسب اليه لقب « رئيس السلام ». وعندما اعلن الملائكة للرعاة أن المسيح قد وُلد غنوا من فوق سهول بيت لحم قائلين: «المجد لله في الأعالي وعلى الارض السلام وبالناس المسرة» (لوقا ٢: ١٤). يوجد تناقض ظاهري بين هذه الاعلانات النبوية وقول المسيح: « ما جئت لالقي سلاما بل سيفا » (متى ١٠: ٣٤). و لكن متى فهمنا القولين فهما صحيحا نجد بينهما توافقا تاما. فالانجيل هو رسالة سلام، والمسيحية هي نظام متى قبله الناس

وأطاعوه فهو ينشر السلام والانسجام والسعادة في كل ربوع الارض. ان المسيحية تجعل كل من يقبلونها ويعتقدون تعاليمها يتحدون في أخوة وثيقة. لقد كانت مهمة يسوع أن يصلح الناس مع الله وكذلك كلا منهم مع الآخرين. لكنّ العالم هو في الغالب تحت سيطرة الشيطان ألد أعداء المسيح. فالانجيل يقدم الى الناس مبادئ الحياة التي تخالف عاداتهم ورجائهم مخالفة تامة، فيتمردون عليه. وهم يبغضون الطهارة التي تكشف خطاياهم وتدينها، ويضطهدون ويقتلون الذين يلحون عليهم في قبول مطالب الانجيل العادلة المقدسة، فهذا المعنى — ولان الحقائق السامية التي يقدمها الانجيل تسبب العدا والمنازعات — يقال عن الانجيل انه سيف.

ان أعمال العناية الغامضة التي تجعل الابرار يتألمون ويلاقون الاضطهاد على يد الأشرار قد أحدثت كثيرا من الارتباكات لكثيرين من ضعاف الايمان. حتى ان البعض يوشكون أن يطرحوا عنهم الثقة بالله لأنه يسمح لأخط الناس أن ينجحوا، بينما أفاضل الناس واطهارهم يتألمون ويلاقون العذابات من قسوة الأشرار. وهذا السؤال يتردد على ألسنة البعض اذ يقولون: كيف يسمح الله العادل الرحيم الكلي القدرة بهذا الظلم وهذا الاضطهاد؟ سؤال لا شأن لنا به. وقد وفر الله لنا براهين كافية على محبته، فليس لنا ان نشك في صلاحه لكوننا لا ندرك أعمال عنايته. قال المخلص لتلاميذه، وكان قد سبق فرأى الشكوك التي ستراود نفوسهم في أيام التجارب والظلام: « اذكروا الكلام الذي قلته لكم ليس عبد أعظم من سيده. ان كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم » (يوحنا ١٥: ٢٠). لقد عانى يسوع لأجلنا أكثر مما يستطيع أي من تابعيه أن يتحملة من قساوة الناس الأشرار. واولئك الذين يُدعون لاحتمال العذابات وآلام الاستشهاد انما يسيرون في أثر خطوات ابن الله الحبيب.

« لا يتباطأ الرب عن وعده » (٢ بطرس ٣: ٩). انه لا ينسى أولاده ولا يهملهم، ولكنه يسمح للأشرار ان يُظهروا أخلاقهم على حقيقتها، حتى لا ينخدع بهم كل من يرغب في ارادة الله. ثم أن الابرار يُلقى بهم في كور الألم والمشقة

ليبتطهروا، ويقنع مثألهم الآخريين بحقيفة الايمان والتقوى، ويدين سلوكهم الثابت الاشراراً وغير المؤمنين.

يسمح الله بأن ينجح الاشرار ويظهروا عداؤهم له حتى اذا امتلاً مكيال اثمهم يرى الجميع عدالة الله ورحمته في اهلاكم هلاكا تاما. على أن يوم انتقامه يسرع، عندما يحصر كل من قد تعدوا شريعته واضطهدوا شعبه جزاء أعمالهم ويجازى كل عمل من أعمال القسوة والظلم ضد عبيد الله الامناء كما لو كان موجهاً ضد المسيح نفسه.

وهنالكَ سؤال آخر أهم من الأول ينبغي ان يثير إهتمام كنائس اليوم. قال بولس الرسول: « جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون » (٢ تيموثاوس ٣: ١٢). فلماذا اذاً يبدو أن الاضطهاد قد خدمت ناره؟ السبب الوحيد هو أن الكنيسة قد شاكت العالم في مثله، ولذلك لا يثار عليها أي اضطهاد. ان الديانة الشائعة في أيامنا هذه ليست طاهرة ولا مقدسة كالتي امتاز بها الايمان المسيحي في أيام المسيح ورسله. انما فقط بسبب روح التسامح مع الخطيئة، ولأن حقائق كلمة الله العظيمة تقابل بعدم الاكتراث، ولأن ما في الكنيسة من التقوى الحيوية العملية قدر ضئيل جداً، لهذه الأسباب يبدو وكأن المسيحية مألوفة لدى العالم ورائجة. ولكن متى انتعش ايمان الكنيسة الاولى وقوتها في كنيسة اليوم فسيتجدد روح الاضطهاد وتشتعل نيرانه مجدداً.